من حكايتِي...

آلاء : "مندفعة كالثورة"

"ماما شو يعني وطن" سألني طفلي ابن الـ5 سنوات ونصف هذا السؤال قبل أيام، ارتبكت وتلعثمت، فلم أعرف ماهي الإجابة التي من الممكن أن تشرح له ما يعنيه الوطن لأمه، فأنا عشت طوال عمري نازحة في بلدي قبل أن أختبر النزوح بشكل شخصي، بعد أن تهجر والدي وهم أطفال من الجولان وذاقوا مرارة التهجير والنزوح والأحكام المسبقة، ورغم ذلك أحببت الجولان كأنني قضيت طفولتي بين بيادره وشجر التفاح والشلالات الباردة.

كنت أسرح بخيالي في قرية والدي الذي طالما قص لنا قصصًا عنها وعن الأراضي والأملاك، ماذا لو كنا مازلنا هناك كيف ستكون حياتنا؟ في الوقت عينه كنت أعشق دمشق وحاراتها القديمة ورائحة الياسمين، كنت أشعر بالحب عندما أهرب من المحاضرات مع صديقاتي لنذهب إلى (الشام القديمة) ونتمشى في سوق الحميدية والبرامكة ومخيم اليرموك، كنت أملك الدنيا بمشوار قصير في أسواق دمشق المكتظة بالناس.

ولكن كل تلك المشاعر الحقيقية تجاه دمشق والجولان، كانت غطاءً رقيقًا قبعت تحته أزمة هوية مازلت أعيشها حتى الآن، فأنا دمشقية جولانية الأصل أحب حرف "الكاف" في لهجتي، والآن أحمل جنسية أخرى لبلد أحاول أن أنتمي لها ولكنها تلفظني باستمرار.

ماذا تعني لي 2011؟

حاولت كثيراً الكتابة عن حياتي وذاتي، عن كل ماعشته خلال سنواتي بلحظاتها الكثيرة الماضية، ولكنني كنت ما أن أبدأ بسطرٍ أو اثنين حتى أجدني أتوقف من بعدها، ، فأن تفكر/ي بمشاركة الآخرين/ات تفاصيل حاسمة ليس أمرًا سهلًا، الكتابة عن أماكن غادرتها دون أن ألتفت وعن أشخاص ودعتهم دون عناق عن حقيبة لم أستطع توضيبها ، عن صور طفولتي التي لم يسعني الوقت لأحملها معي.

ستقرأون/ن هذه المقال وستعرفون/ن أنني حاولت بجهد إكمالها، بينما أحاول تذكر القصص لكم/ن أن تتخيلون/ن كم ستبدو هذه القصص ناقصة إذا لم أبدأ من هناك..

مصر!

لطالما كنت أستمع للأطباء في قسم الإسعاف في إحدى مشافي دمشق الخاص وهم يتهامسون أثناء حديثهم عن الثورات، كنت أعمل حينها كممرضة في القسم عينه. أذكر ذلك اليوم بالتحديد، يوم تنحي حسني مبارك على إثر ثورة 25 يناير/كانون الثاني. كنت أجهز الأدوات الجراحية لأخذها لقسم التعقيم، سمعت الخبر ونقلته للطبيب الذي كان مداوم معي حينها "تنحى مبارك تنحى تنحى الثورة انتصرت بمصر.." ومن دون وعي أكملت جملتي "يارب عقبالنا عقبال اللي عنا" لا أنكر أنني رأيت نظرة رعب على وجه الطبيب عندما قال لي "أمين" بصوت خافت، قام عن كرسيه وجاء اقترب مني وقال لي هامسا في أذني "اللي عنا ما بيروح ليصير الدم للركب".

مصر!

لحظة سماع خطاب التنحي لم أتمالك نفسي بدأت بالبكاء، بكيت بحرقة، أنا الشابة ابنة 20 عاماً حينها، لم أكن أعرف كثيرًا عن السياسة والسلطة والحقوق والحريات، ولكنني كنت أعرف جيداً معنى أن تعيشي تحت حكم متسلط ديكتاتوري جائر، أعرف ماذا يعني أن تعيشي مسلوبة الإرادة ومضحوك عليك بإسم الوطن والوطنية "الوطنية التي شوه النظام مبادئها".

كنت أعيش جنوب دمشق؛ تلك المنطقة المنسية التي يشكل النازحون والنازحات من أبناء وبنات الجولان السوري المحتل واللاجئين/ات الفلسطينيين/ات أكثر من 90 بالمئة من أبنائها وبناتها، وكان من المتوقع أن تكون هذه المناطق من أولى المناطق التي تخرج ضد النظام السوري لما عاشته من تجاهل لسنوات طويلة، وهذا ماحصل بالفعل.

كنت أخرج يومياً إلى عملي وكنت أرى الثورة في وجوه الناس في الحارة، وعلى مواقف السرافيس،وفي الأسواق، وفي كل مكان. بدت لي أن الأجواء في دمشق قد اختلفت منذ أول شرارة للثورات العربية، وأصبح الناس أكثر ترقبًا وأكثر حذرًا.

الحجر الأسود

يوم الإثنين 21 آذار 2011 لم يكن يومًا عاديًا بالنسبة لأهالي الحجر الأسود، كنا كعادتنا نجلس في المنزل بعد عودة معظمنا من دوامه سواء من عمله أو مدرسته وجامعته، لكن أخي الكبير لم يكن طبيعياً، كأن قلقًا وخائفًا ومتحمسًا بنفس الوقت، كل لحظة ينظر إلى جواله كأنه ينتظر اتصالًا مهمًا، وقبل المغرب بقليل خرج مسرعًا. كنت أشعر حينها أن شيئًا ما سيحدث!

خرجت مسرعة، وما إن وصلت إلى "رأس الحارة" حتى بدأت أسمع صوت هتافات "يادرعا حنا معاكي للموت"؛ في تلك اللحظة لم أتمالك نفسي، بكيت بحرقة وأنا أشارك معهم/ن بالهتاف بصوت خافت، بدأ صوتي يرتفع شيئًا فشيء، يرتفع أكثر، لدرجة الألم في حنجرتي! أهتف لدرعا الفزعة وأجهش بالبكاء.. هذا ماكنا نريده لسنوات الآن أدركت مالذي نريده أن نرفع صوتنا عاليًا في وجه الظلم دون أن نخاف".

كنت أعرف معظم الشباب المشاركين بالمظاهرة، جيراننا الدرعاوية وأخوتي وأبناء عمومتي وأخوالي وجيراننا طلاب الجامعة وعدد جاء من بقية أحياء جنوب دمشق.

سألت نفسي: وأنا ماهو دوري!

بدأت تصلني معلومات من بعض الشبان عن أماكن انطلاق المظاهرات في الحجز الأسود والأحياء المجاورة له، كنت أجهز نفسي وأذهب وفي كل مرة يراني فيها أخي أو أحد أبناء عمومتي يحاولون منعي، ولكن لم أكن أستمع لهم، **كانوا يخافون علي لاسيما أنني في البداية لم أكن أخبئ وجهي، لم أكن أدرك معنى أن يشي بي أحدهم/ن. حينها لم أكن أهتم.**

بدأت أشارك في المظاهرات "الطيارة" كما سميناها، والمظاهرات المنظمة يوم الجمعة، وكنت واحدة من سبعة ربما أقل، وكان العدد يزيد يوم الجمعة، فمنذ إنطلاق أول مظاهرة في الحجر الأسود حتى منتصف عام 2012 كانت مظاهرات يوم الجمعة تخرج بأعداد كبيرة.

حاولت المساعدة بأمور أخرى، أخبرت أخي أنني قادرة على المساعدة ولكنه كان يتجاهل طلبي خوفًا علي، ولكني لم أكن أهتم برأيه، استمررت بالمحاولة حتى تمكنت من التواصل مع شبان التنسيقية وكان أحدهم ابن عمي.

كنا ثلاثة أو أربع فتيات نزيد أو نقل أحيانًا، وفي بعض الأوقات كنت وحدي، **نطبع الأعلام ونخرج إلى الشوارع بأيدنا المليئة بالطلاء الأحمر**، كنت أحمل معي حقيبًة محملة باللافتات والبخاخات، لم أعرف الخوف طوال 2011 حتى عندما أقف مواجهة مع عنصر الأمن أو العسكري، كنت أشعر بأنني أقوى منه وأنه خائف من إرادتي.

لم أدرك معنى أن يشي بي أحدهم/ن. حينها لم أكن أهتم

سألت نفسي: وأنا ماهو دوري!

كنت مندفعة كالثورة لا أرى سوى النصر القريب، في إحدى المرات نسقنا كمجموعة من النساء لإصدار بيان مصور تنديداً بالمجازر التي ارتكبها النظام السوري في بلدات ومدن حمص، نسقت لتصوير البيان في منزلي من دون أن أخبر عائلتي، وبعد أن صورنا وانتهينا خبئت الأعلام في إحدى رفوف الخزانة، تفاجئت أمي عندما رأته، كانت فخورة بابنتها ولكن زاد خوفها علي.

وفي كل مرة كان يزيد النظام من همجيته وقمعه كانت حاجة الشبان لنا كنساء تزيد، وبالتالي يصبحون أكثر مرونًة وأكثر تقبلًا لمشاركتنا، للحقيقة كانت الأصوات المدنية عالية في الفترة الأولى من الثورة، بينما أصوات المتشددين/ات لا تكاد تسمع.

تجهيز نقاط إسعافات أولية

في 22 نيسان والتي عرفت بيوم الجمعة العظيمة؛ استشهد ثلاثة عشر من أبناء الجولان في الحجر الأسود، في هذه الجمعة كان أول دم يراق في المنطقة، أحد الذين قتلوا حينها كان واقفًا على البرندة (الشرفة) وهو زوج ابنة عمي، كان موته قاسيًا علينا جميعًا.
كان هناك عشرات الجرحى ولم نكن قادرين على إسعافهم للمشافي خوفًا من ملاحقة الأمن لهم وقتلهم، أسوةً بماحدث في درعا ومناطق أخرى من سوريا، لذلك قررنا حينها تجهيز المنطقة بنقاط إسعافية.

تجهيز نقاط إسعافات أولية

حينها بدأت أجس نبض الأطباء الذين أعرفهم إن كان من بينهم من سيساعدني في تأمين مستلزمات طبية، الآن وأنا أتذكر أحمد الله على أنني التقيت الأطباء المناصرين للحراك الثوري والثوار والمحايدين، منهم من ساعدني بتأمين مستلزمات طبية إسعافية، من مواد التخدير وأسطوانات الأوكسجين وأدوات جراحية وغيرها، حيث قمت بمساعدة بعض الفتيات بتوزيعها على بعض المنازل الآمنة والمفتوحة على بعضها والتي يسهل التحرك والهرب منها وقت الحاجة.

في أحد المواقف الذي لا يمكن أن أنساه، وإذا عاد بي الزمن لن أكرره أبداً، حيث لم أكن قادرةً في حينها على تقدير حجم الخطر الذي سيطالني بحال تم اعتقالي، حينها كنت عائدة مع طبيب اسمه صلاح بسيارته نحمل معنا أكياسًا كبيرة مليئة بالسيرومات الملحية (المحاليل الملحية) إلى جانب أدوية الالتهاب ومواد تخدير وخيوط جراحة وغيرها. كانت تلك زيارته الأولى للحجر الأسود، عندما وصلنا بالقرب من مدرسة "أحمد زعل الفاضل" مرت من أمامنا باصات (حافلات) الأمن، الطبيب كان خائفًا فهو لم يعتد على هذا العدد من الأمن، فقد كان يعيش في منطقة لم تخرج بها أية مظاهرة في حينها، وربما حتى وقتنا الحالي. أتذكر حينها قال لي "آلاء انت بنت المنطقة تقدري تدبري حالك مافيني كمل بخاف يمسكوني" شعرت بالاحراج منه وخفت أن يحدث له شيئا فقلت له **"نزلني هون وماتاكل همي".**

تجهيز نقاط إسعافات أولية

تخيلوا معي: نزلت ومعي أكياس كبيرة وبعضها شفاف يظهر مابداخلها، اتصلت على معظم الشبان في التنسيقية وعلى أبناء عمي وأبناء أخوالي وأخوتي، في ذلك اليوم لم يرد علي أحد، لأ مأمون ولا عمار ولا أحمد ولا أحد.. "أين أنتم هل أتصل بكم لأطق حنك مثلاً"، قلت في نفسي غاضبة. حملت الأكياس واقتربت قليلاً من حاوية القمامة، والأمن قريب مني مسافة 300 -400 متر فقط. وإذا بسيارة أجرة صفراء وقفت لي .. إنه جارنا! لم أكن أعرف موقفه من الثورة قبل هذه اللحظة ولكني كنت مضطرة أن أنجو بنفسي قبل أن ينتبه الأمن.

حمل جارنا الأكياس ووضعها مسرعاً داخل السيارة وانطلقنا، في منتصف الطريق التفت إلي وقال "إنت مجنونة! الأمن مليان اليوم اغتالوا ضابط بالحجر عنا بالحارة شو انهبلتي جاية بهي الموادا!". أعود بذاكرتي اليوم إلى تلك الأمتار القليلة التي كانت تفصلني عن الأمن، وأحمد الله فعلاً أنني لم أعش تجربة الاعتقال، حيث أن مجرد تخيل اعتقالي لدى مخابرات النظام كان كاف لرسم صورة هي من أفظع لحظات الحياة وهو نفس الشعور الذي يجعلني اليوم أثمن تجربة النساء اللواتي خضن هذه المحنة القاسية بكل تفاصيلها المنهكة.

بالعموم، لم تكن تلك الحادثة هي التصرف الغبي الوحيد الذي قمت به في بدايات الثورة، وأعتقد أنه لدي تاريخ حافل بالمواقف التي أصبحت أسميها الآن "الغبية والانتحارية"! ولكن لن يسعني ذكرها كلها في هذا المقال، كما أود أن أحتفظ ببعضها لنفسي.

أبو كنزة كيوي

على الجانب الآخر، لم تكن كل مغامرتي في الثورة خطيرة وانتحارية، بل تعج ذاكرتي أيضاً بالمغامرات المليئة بالحب والعاطفة، وأذكر كيف كانت بعض الفتيات تخرج في التظاهرات الكبيرة في حينا من أجل ذلك الشاب اللطيف الحازم "أبو كنزة كيوي"، ورغم أنني أعتقد أن ذكر هذه الحادثة لن تعجبه إلا أنني سأحرص على إرسال هذا المقال له حتى يتذكر معي تفاصيل صغيرة كانت تلون أيامنا تلك.
لم يكن "أبو كنزة كيوي " يحب لفت أنظار الفتيات إليه، كان ثوريًا مفعمًا بالأمل والطموح يصب جل تركيزه على "سوريا الحرة"، وبالتالي كان يؤجل كل شي حتى يسقط الرئيس، أجل حبه وابتسامته وضحكته الجميلة الجذابة وكان باردًا تجاه كل المشاعر التي أرسلت له.

في أحد المرات أرسلتُ له مع أحد الشبان علم الثورة وقد أغرقته برائحة العطر! لم أكن أتوقع ردًا منه، أو أي تعبير، فقد كنت أعرف تمامًا أنه لا يستطيع أن يفكر بأكثر من قضية، لا يمكن له أن يجمع قضتين كبيرتين في آن واحد الحب والثورة، لذا لم استغرب أنه وبعد أن استلم هديته اتصل بيقائلًا "خجلتيني قدام الشباب!" وأذكر أنني ضحكتُ كثيرًا يومها.
لم تزعجني ردات فعله الباردة أبدًا، كنت أحب هذا الجزء في زمننا ذاك أن أحب دون أن أتأسف أو أندم، أن أبادر وابتسم ومن ثم أغادر من دون ألم، كانت رغبتي الوحيدة والحقيقية أن يبقى بخير دائمًا.
أعرف الكثير من قصص الحب التي جمعتها الثورة واستمرت رغم انعدام الأمن وعدم توقف الموت المحيط بنا من كل جانب، وأذكر كيف كنا نجد كلمات الحب في نشرات الأخبار الكثيرة المكتظة بأشلاء السوريين/ات والزيف السياسي والمعارك الوهمية.

أبو كنزة كيوي

في النهاية خرجت من سوريا يوم 3 أيلول 2012 بعد أن أصبحت ملاحقة أمنيًا، ومنذ ذلك الحين وأنا أشاهد جراحي تكبر مثل أغنية قديمة، أغمض عيني بين الحينة والأخرى وأشغل مقطع صوتي لأغاني الثورة بصوتٍ حوراني أو حمصي، أتذكر من أمسكت بيديهم وأمسكوا يدي أترحم على أرواح من ماتوا/ن وأتمنى لقاء قصيرًا بمن بقي منهم/ن.

تذكرت وكتبت، وكثيرٌ مما تذكرته لم أكتبه، أشعر أنني فقدت الكثير من الإيمان إلا أنني مازلت متشبثة بفكرة أن الأحلام ليست مجرد أفكار أو لوحات لا ترى، بل هي حقيقة بالنسبة لنا، نحملها هنا في ذاكرتنا العميقة إلى الأبد.. الأبد هو الحب الذي لا ينتهي لمحاولاتنا النجاة من العبودية.. للحرية المخادعة التي توهمنا بالطمأنينة التي تعول على ما بقي حي فينا بعد كل تلك السنوات والأيام المتشابهة!.